نيقولا ميكيافيلي أبرز فلاسفة السياسة في النهضة الأوروبية (١٤٦٩- ١٥٢٧م)

م. د. وسن عبد العظيم فاهم الإيدامي

جامعة القادسية _ كلية التربية _ قسم التاريخ

رقم الهاتف : 07800373612 / الإيميل الرسمي: wasan.fahim@qu.edu.iq

ملخص البحث : جاء البحث لتسليط الضوء على واحد من أبرز فلاسفة عصر النهضة الأوربية الذي برع في مجال الفكر السياسي، وتقديم مفهوم الدولة الحديثة القائم على مبدأ الغاية تبرر الوسيلة بعنوان(**نيقولا ميكيافيلي أبرز فلاسفة السياسة في النهضة الأوروبية ١٤٦٩– ١٥٢٧م)** الأمر الذي تطلب تقسيمه الى ثلاث محاور، فدار المحور الأول حول السيرة الذاتية لشخصية ميكيافيلي من حيث الولادة والنشأة والنشاط المهني والظروف السياسية المحيطة به والمناصب التي تقلدها، فيما عرض المحور الثاني كتب ميكافيلي وآثاره والفكر الذي حملته تلك الكتب والفروق بينها والظروف التي دعت الى تأليفها والمقارنة بين نظرياته السياسية في أبرز كتابين له، واختصّ المحور الثالث في بيان فلسفة ميكافيلي ومنهجه الفلسفي وأبرز الأسس التي قامت عليها الفلسفة الميكافيلية.

الكلمات المفتاحية : نيقولا ، ميكافيلي ، أوروبا، عصر النهضة ، فلسفة السياسة ، فكر سياسي

Research Summary:

… This research came to shed light on one of the most prominent philosophers of the European Renaissance who excelled in the field of political thought, Presenting the concept of the modern state based on the principle that the end justifies the means (**Nicola Machiavelli, the most prominent political philosophers in the European Renaissance 1469-1527 AD**) This required dividing it into three axes: The first topic revolved around the biography of Machiavelli's personality in terms of birth, upbringing, professional activity, the political circumstances surrounding him, and the positions he held. The second axis presented Machiavelli's books, his influences, the thought that those books carried, the differences between them, the circumstances that called for their writing, and the comparison between his political theories in his two most prominent books. The third axis was concerned with explaining Machiavelli's philosophy and his philosophical approach, and highlighted the foundations on which Machiavellian philosophy was based.

key words: Nicholas, Machiavelli, Europe, the Renaissance, political philosophy, political thought

المقدمة :

نيقولا ميكافيلي هو الفيلسوف والسياسي والمفكر الإيطالي الذي يُعد أول مؤسس لقاعدة **(الغاية تبرر الوسيلة)** في القرن السادس عشر الميلادي، تلك القاعدة التي بررت فيما بعد الفساد الأخلاقي وممارسة الاستبداد والطغيان لكل سياسي ديكتاتوري وضعها نصب عينيه.

يزداد تطور الفهم الحقيقي لهذا المفكر ضمن اطار الفكر السياسي الحديث كلما زاد إدراك المغزى الحقيقي لأفكاره التي أرد التعبير عنها والتي تصب بمجملها في بوتقة **(الدولة أولاً)** الدولة التي مثّلت عنده قيمة مادية كبيرة أباح للسياسي من أجلها اتباع الوسائل العقلية في إدارة مصالحها وتنحية العاطفة جانباً، كما يعد من أوائل المفكرين وفلاسفة السياسة المنادين بشكل واضح وصريح ابعاد المؤسسة الدينية عن الحكم، وكانت هذه الافكار في عصره تنذر بعواقب وخيمة جداً يدفع ثمنها المنادي بها لا سيما وان الكنيسة البابوية تتمتع بسلطة عليا، إذ كان نظام الحكم في أوربا عبارة عن اتحاد تام بين سلطتين الأولى روحية متمثلة بالكنيسة، والثانية زمنية متمثلة بالقيصر(الملك) الذي حكم إما وفق نظرية الحق الإلهي(**Devine Right**) أو شبه إلهي(**Quasi Divune**)، وبقيت أوربا تشهد هيمنة هذا الاتحاد الذي امتاز ببروز سلطة الكنيسة تارة، وتصاعد سطوة القياصرة والأمراء والملوك تارة، فلم يكن للدولة سوى تأمين مصالح هاتين المؤسستين، دون اعارة لأهمية مؤسسات الدولة المتصلة بمصالح الشعب، والدولة بالكامل.

فجاء الدور الكبير لميكافيلي في تطوير الفكر الساسي بشكل عام، و**(مفهوم الدولة)** تحديداً إذ تصدى بأفكاره للسلطة الروحية من خلال تعكّزه على السلطة الزمنية لذا هادن الأسرة الحاكمة في فلورنسا **وهنا تكمن أهمية البحث** ليكون مصنف ضمن تاريخ الفكر السياسي الحديث.

سعت **أهداف البحث** للتعريف بشخصية ميكافيلي وكيف عُدّ مفكراً وفيلسوفاً سياسياً بارزاً؟ وهل كان للظروف السياسية التي عاشتها مدينة فلورنسا خاصة وايطاليا عامة أثراً واضحاً على تلك الأفكار؟ وماهي أبرز كتبه التي حملت فلسفته الميكافيلية ونظرياته السياسية؟ وماهو منهجه الفلسفي؟ وبذلك جاءت **حدود البحث** للإجابة

عن تلك التساؤلات فتكونت من **مقدمة** وثلاث محاور: **الأول**(سيرته الذاتية والمهنية)، وتناول **الثاني**(مؤلفاته وآثاره)، فيما اختص **الثالث** بـ(فلسفته ومنهجه الفلسفي)، **وخاتمة** حملت أهم نتائج البحث.

المحور الأول : سيرته الذاتية والمهنية

ولِد نيقولا ميكافيلّي في مدينة فلورنسا الايطالية بتاريخ ٣ مايو ١٤٦٩م، وسط عائلة نبيلة منحدرة من أُسرة توسكانية عريقة، فكان والده محامي مِن النُبلاء يدعى برناندو دي نيكولا ميكافيلي وأمه تُدعى بارتولومي دي استفانو نيلي[i]، امتاز والد ميكافيلي بثراء متوسط، وشغل منصباً صغيراً في الحكومة، ولديهِ بيتاً ريفياً صغيراً في سان كاستشيانو San Casciano على بعد عشرة أميال من مدينة فلورنسا[ii] تلك المدينة الايطالية المهمة التي نشأ فيها ميكافيلي وقضى شطراً من حياته، و توفي فيها بتاريخ ٢١ يونيو ١٥٢٧م[iii]، ومرّت حياته بأربعة مراحل يمكن تقسيمها على فترات تاريخية يوضحها لنا الجدول رقم(١) :

جدول (١) فترات حياة ميكافيلي الاربعة[iv]

ت	الفترة	تاريخها	أهم ما حملته من احداث
١	الفترة الاولى	١٤٦٩– ١٤٩٨	نشأ فيها ميكافيلي كغلام في فلورنسا ثم تلقى تعليمه بعدها عُيّن كاتباً في دوائرها الحكومية
٢	الفترة الثانية	١٤٩٨– ١٥١٢	شغل فيها منصب السكرتير الاول لحكومة فلورسنا واوفد ابانها في عدد من البعثات المهمة بالنيابة عن حكومته
٣	الفترة الثالثة	١٥١٢– ١٥١٧	قضاها في عزلة بداره خارج فلورنسا يدون ابانها مطارحاته
٤	الفترة الرابعة	١٥١٨– ١٥٢٧	كتب في غضونها كتابه فنون الحرب وتاريخ فلورنسا وشغل في نهايتها مناصب على جانب كبير من الاهمية في حكومة فلورنسا.

تلقى تعليمه الأدبي المعتاد وتعلم اللغة اللاتينية بسهولة، لكنه لم يتعلم اليونانية، وراقه التاريخ الروماني وأولع بليفي، ويكاد يجد لكل نظام سياسي وكل حادثة في ايامه شبهاً في تاريخ روما يوضح ذلك النظام وتلك الحادثة، كما درس القانون الى جانب التاريخ لكنه لم يتمه، وقلما كان يعنى بفن النهضة ولم يظهر شيئا من الاهتمام باكتشاف العالم الجديد ولعله أدرك بعد هذا الكشف ان مسرح السياسة قد اتسع، اما المسرحية فستبقى كما هي ويضل اشخاصها دون تغيير وكان شغله الشاغل هو السياسة فن الحصول على النفوذ ولوحةُ الشطرنج التي تنتقل عليها قطع القوة والسلطان[v].

مثلت مراحل حياته شطراً مهماً من تاريخ فلورنسا اذ عاصر في شبابه ذروة ازدهارها ومجدها كقوة ايطالية تحت حكم لورينزو دي مديتشي الديكتاتوري(من ١٤٧٨– ١٤٩٢م)، وقد تمكن ميكافيلي من الوصول الى مناصب حكومية، إذ انتخب سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنسا التي تُشرف على الشؤون الخارجية والعسكرية، واستمر بذلك ثلاثة عشر عاماً[vi]. أظهر ذكاءً حادًا أهّله ليتدرج في الوظائف الحكومية في فلورنسا، وكان متأثراً بـ"سافونا رولا" الذي كان مُصلحاً يخاطب الشباب الايطالي داعيهم للتمسك بالفضيلة لكن ميكافيلي لم يلبث ان ابتعد عن التأثر بأفكاره[vii].

أُرسل ميكفيلي كمبعوث في عدة بعثات دبلوماسية مهمة كان بعضها خارج ايطاليا والبعض الآخر إلى الامارات المُختلفة في شبه الجزيرة الايطالية لتنفيذ السياسة الخارجية لفلورنسا إذ زار خلال تلك البعثات البلاط الملكي في فرنسا والمانيا وعدة مقاطعات ايطالية، وفي عام ١٤٩٨م عُيّن اميناً للديتشي دلا جويرا Dieci della Guerra –مجلس الحرب المكون من عشرة– وظل في هذا المنصب أربعة عشر عاماً يُعد في البداية من المناصب المتواضعة، عمله: جمع محاضر الجلسات، والسجلات، وتلخيص التقارير، وكتابة الرسائل، لكنه كان يعمل في أداة الحكم ويستطيع مراقبة سياسة اوروبا من نقطة الملاحظة الداخلية وكان في وسعه محاولة التنبؤ بالتطورات المقبلة نتيجة معلوماته التاريخية، مُدرِكًا بأن الوقت دون غيره هو الذي يحتاجه كي يرقى الى القمة ويسخّر قوى الدولة العنيفة ضد دوق ميلان، ومجلس شيوخ البندقية، وملك فرنسا، وملك نابولي، والبابا والامبراطور، وما لبث أن أُرسل في بعثة الى كاترينا اسفوردسا Caterina Sforza كونته امولا وفورلي١٤٩٨م واثبتت كترينا أنها أشد دهاء من أن تقع في حبائله فعاد صفر اليدين بعد أن لاقى جزاءه[viii].

جرّب العمل الدبلوماسي بعد عامين، إذ صحبه في هذه التجربة فرانتشيسكو دلاكاسا في بعثة الى لويس الثاني عشر ملك فرنسا(من ١٤٩٨– ١٥١٥م)[ix]، وخلالها مرض دلاكاسا فاسند رئاسة البعثة إلى ميكافيلي؛

فتعلم اللغة الفرنسية وتنقل بين القصور مع الحاشية، وبعث الى مجلس السيادة أنباءٌ يقظة وتحليلات دقيقة جعلت أصدقائه في فلورنسا يثنون عليه ويدركون أنّه أصبح سياسياً ضليعاً[x].

مثّلت البعثة التي عُيّن فيها ميكافيلي مساعداً للأسقف سدرسني وسافرت الى سيزاري بورجيا في أربينو عام ١٥٠٢م النقطة الفاصلة في تطور عقليته السياسية، ولما استدعي في فلورنسا ليلقي بياناً عنها بنفسه، احتفل بالمنزلة التي بلغها في العالم إذ تزوّج وأسس حياة جديدة، ثم أُرسل ثانيةً الى سيزاري في اكتوبر، فالتقى به امولا ووصل الى بنجاليا Benigallia في الوقت الذي استطاع فيه أن يرى سعادة بورجيا الذي نجح في اقتناص الذين ائتمروا به أما خنقاً أو سجناً، وكانت اعماله تلك حوادث مهمة هزت مشاعر ايطاليا بأجمعها[xi].

أثرت حوادث بورجيا في نفسية ميكافيلي إذ أنّه التقى بالطاغية الباهر وجهاً لوجه فكانت دروساً في الفلسفة، لأن رجل الأفكار وجد نفسه أمام رجل الأعمال وجهاً لوجه، فكرمه وعظمه، وتحرّق قلب السياسي الشاب حسداً حين أدرك المسافة التي عليه قطعها من التفكير النظري التحليلي الى العمل المحطم الرائع، فها هو ذا رجل يصغره بسنين، قد قضى بسنتين فقط على أكثر من عشر طغاة مستبدين وأصدر الأوامر إلى أكثر من عشرة مدن وأثبت أنّه الكوكب الوضاء في سماء زمانه وما أضعف ما بدت الألفاظ أمام هذا الشاب الذي لم يكن ينطق منها إلّا بالقليل الذي نطقه بازدراء أساساً! ومن ذلك الحين أصبح سيزاري بورجيا بطل فلسفة ميكافيلي –كما أصبح بسمارك فيما بعد بطل فلسفة نشته– فقد وجد في هذا الرجل الذي تجسدت فيه ارادة القوة والسلطان فلسفة أخلاقية وفقاً للخير والشر وانموذجاً للإنسان الأسمى[xii].

أدرك ميكافيلي بعد عودته الى فلورنسا عام ١٥٠٣م أنَّ بعض رجال الحكومة يعتقدون ان بورجيا المتهور قد بدّل عقليته وغلبه على أمره، لكن الجهود التي بذلها ميكيافيلي لتحقيق مصالح مدنية أعادت له احترام سديرني حامل شعار المدنية ومجلس العشرة الحربي، وشهد عام ١٥٠٧م انتصار مبدأ من مبادئه الأساسية القائم على أنّ الدولة التي تحترم نفسها لا تعهد بالدفاع عن أراضيها لجنود مرتزقين، كونها لا تستطيع مستقبلاً الركون اليهم في الشدائد والأزمات، إذ أنّ بمقدور العدو المسلح بقدرٍ كافٍ من الذهب أن يبتاعهم هم وقائدهم؛ لذا يرى ميكافيلي ضرورة تأسيس قوة حرس وطني من أبناء البلاد، والافضل ان تؤلف من الفلاحين الأشداء الذين اعتادوا المشقّة وتنفسوا الهواء الطلق، الى جانب حسن التجهيز والتدريب المستمر، و أن تكون هذه القوة آخر خط للدفاع الثابت والقوي عن الجمهورية، قبلت الحكومة مشروعه هذا بعد تردد طويل وعهدت اليه عملية تنفيذه،

لذا قاد ميكافيلي عام ١٥٠٨م حرسه الوطني إلى حصار بيزا، و أظهر براعة فائقة، استلم على أثرها بيزا، ثم عاد الى فلورنسا وهو بالغ ذروة المجد[xiii].

أثار الاستقلال المسلح لدولة سويسرا الاتحادية الحماس في نفس ميكافيلي، إذ اجتازها في طريقه عندما أُرسل في بعثة الى فرنسا عام ١٥١٠م فوجد في سويسراً المثل الأعلى الذي يريد تحقيقه لايطاليا، ولما عاد من فرنسا شخّص المشكلة التي تعانيها بلاده وهي كيف لامارات متفرقة أن تتحد وتتدافع عن ايطاليا إذا ما هاجمتها دولة حدودية مثل فرنسا وقررت الاستيلاء على شبه الجزيرة الايطالية بأجمعها[xiv].

وُضعت قوة الحرس الوطني على محك التجربة الكبرى عندما استشاط البابا يوليوس الثاني(١٥٠٣–١٥١٣م) غضباً من فلورنسا عند رفضها الانضمام اليه في طرد الفرنسيين من ايطاليا، فامر جيوش الحلف المقدس عام ١٥١٢م باسقاط حكومة الجمهورية واعادة آل مديتشي الى العرش، وهزم حرس ميكافيلي الوطني الذي عهد اليه الوقوف في خط الدفاع الفلورنسي عند براتو Prato وولى رجاله الأدبار أمام جنود الحلف المدربين عسكرياً، واستولى جنود الحلف على فلورنسا وانتصر آل مديتشي، وفقد ميكافيلي منصبه الحكومي وسمعته، وبذل كل ما في وسعه لاسترضاء المنتصرين وكاد سعيه أن ينجح، لولا مؤامرة دبرها شابين متحمسين لإعادة الجمهورية فاكتُشف أمرهما، ووجد بين اوراقها ثبت يحتوي اسماء اشخاص يعتمدان على تأييدهم ومن بينها اسم ميكافيلي فألقي القبض عليه وتم تعذيبه لكنهم لم يجدوا دليل يثبت اشتراكه في المؤامرة فأطلق سراحه[xv].

انتقل ميكافيلي –بعد خروجه من السجن– هو وزوجته وابناؤه الأربعة إلى بيت اسرته في سان كاستثيانو، إذ قضى السنين الخمس عشرة الباقية من عمره ما خلا السنة الاخيرة منها، يعاني الفقر ويعلل نفسه بالآمال[xvi]، ولولا هذه الكارثة لما سمعنا به قط لان في هذه السنين العجاف ألّف الكتب التي هزّت مشاعر العالم كله، وذاعت فلسفته ونظريته السياسية من خلال كتبه وآثاره التي سيتناولها المحور التالي.

المحور الثاني : مـؤلفـاته وآثـــاره

ترك ميكافيلي كنز أدبي وفكري هائل في مختلف المجالات تمثّل بالكتب التي قُدّر عددها بالثلاثين كتاباً، اشهرها كتاب(**الأمير**)، و(**احاديث عن كتب تيتوس ليفيوس العشرة الأولى**)[xvii] وقد عالج أُمور الحكم في الكتابين بصورة مختلفة ذات مغزى، فاعتقد بعض الكتاب ممن حذوا حذو روسو[xviii] ان كلًا منهما يناقض الآخر والحقيقة غير ذلك اذا اخذنا بالحسبان الظروف التي صاحبت تأليف(الأمير) لكن سوء الحظ جعل معظم القرّاء يعرفون ميكافيلي عن طريق هذا الكتاب، فكلا الكتابين يعرضان نواحي من الموضوع نفسه المتمثلة

بأسباب قيام الدول وانحلالها، والوسائل التي تُمكّن الساسة من ديمومة الدول، فكتاب الأمير يُعالج الملكيات أو الحكومات المطلقة، ويعالج الكتاب الثاني(أحاديث...) بصفة خاصة توسع الجمهورية الرومانية، وهذا يطابق تصنيف الدول المزدوج الذي يطالعنا فيه ميكافيلي في كتاب الأمير، كما ان لميكافيلي غير هذين الكتابين العديد من المؤلفات والآثار والدراسات والتي سنجردها وفقاً لتوارايخها وكما مبين بالجدول(٢) :

الجدول (٢) أهم كتب وآثار ميكافيلي وفقاً لتواريخها وسنوات طبعها ونشرها [xix]

ت	السنة	الكتب والملاحظات عليها
١	١٥١٣	نجا ميكافيلي باعجوبة من عقوبة قاسية وطرد من عمله فلجأ الى مقره الريفي في سانت اندريا إذ انتهى من كتابة(الأمير)، وبدأ كتابة(أحاديث).
٢	١٥١٣–١٥١٧	انتهى من كتابة (أحاديث)
٣	١٥١٥–١٥١٦	انتهى من كتاب(فن الحروب) تحدث فيه عن الجيش الضروري لمثل الحكم الذي وصفه في كتابه الأمير
٤	١٥١٨	الف ميكافيلي أكبر أعماله الأدبية(جذور تفاح الجن)
٥	١٥١٩	ظهرت أولى طبعات(جذور تفاح الجن)
٦	١٥٢٠	كلفت جامعة فلورنسا ميكافيلي بكتابة(تاريخ فلورنسا)
٧	١٥٢١	طبع كتاب(فن الحرب) وهو الكتاب الوحيد الذي طُبع من أعمال ميكافيلي السياسية أثناء حياته
٨	١٥٢٥	ربما يكون ميكافيلي قد الف كتاب(حوار حول اللغة) فهناك جدال حول اسم المؤلف
٩	١٥٢٦	قُدم كتاب(تاريخ فلورنسا) الى البابا كليمنت السابع
١٠	١٥٢٧	مات ميكافيلي ودفن في فلورنسا
١١	١٥٣١	نُشر كتاب(أحاديث)
١٢	١٥٣٢	نُشر كتاب(الأمير)
١٣	١٥٥٩	أُدرجت أعمال ميكافيلي في قائمة الكتب الممنوعة وقررت محاكم التفتيش إحراق جميع كتبه.

١٤	١٥٧٦	كتب أحد الفرنسيين البروتستانت رداً عنيفاً على كتاب(الأمير) وقد انتشر هذا الكتاب بسرعة وتُرجم إلى الانكليزية
١٥	١٦٤٠	ظهرت أول ترجمة انكليزية لكتاب(الأمير) وترجمهُ ادوارد دايسرز.

أوضح الجدول أعلاه أهم وأبرز مؤلفات ميكافيلي ومناسبات تأليفها إذ نراه ركّز كثيرًا على الجانب السياسي فهو بذلك المفكر السياسي البارز في عصره، كما أوضح الجدول أيضًا سنة الوفاة كي يتسنى للقارئ أنّ نشر كتاب "الأمير" و"أحاديث" تم بعد وفاته ومن ثم مُنعت كتبه وبعدها تُرجمت وبذلك يكون ميكافيلي منظر السياسة الحديث قد عُرِف وذاع صيته بعد وفاته.

كتب مكافيلي كتاب(الأمير) وهو في الريف التوسكاني بعد نفيه من خدمة دولة البندقية نتيجة اتهمامه بالمشاركة في مؤامرة الجمهورية، إذ وضع الكتاب بصيغة رسالة موجهة الى الأمير المديتشي الحاكم ولم يُنشر خلال حياته[xx] وكأنه أدرك أنّ الفائدة منه ستذهب إذا نُشِر لأن الكتاب مقدم خصيصاً للأمير وهو سرّ النجاح الذي انفضح وفقد كامل قيمته عندما نُشر، فاقترن اسم ميكافيلي دوماً بالسمعة السيئة وبات وصف المرء بالميكافيلية يوازي اتهامه بالمكر الذي لايعرف حداً، و((ماكيافل)) هو أحد شياطين الدراما الأوربية، وأحياناً يغدو رديفاً لابليس الذات، وبات كتاب الأمير الاكثر شيوعاً بين مؤلفات ميكافيلي، ومبعث هذا الصيت الشرير والمفارقة الكبيرة أنّ هذا الكتاب من بين كل مؤلفاته يقدم أقل قدر ممكن من التعبير عن حقيقة أفكاره، وتعددت النظريات التي وضعت لتفسير حقيقة ماعني بـ(الأمير) لكن اتفق الدارسون على أمرٍ واحد وهو ان ميكافيلي الحقيقي أياً كان تأثيره السيء ليس هو بالشخص الشرير الذي صورته تقاليد العامة وللتأكد من ذلك تكفي قراءة كتبه التي أعارها الأهمية الكبرى أبرزها (الخطب والمقالات) و(تاريخ البندقية).

أوضحت كتب ميكافيلي الأخرى أنّهُ أبعد ما يكون عن التفلّت من المناقب والدين، او الدفاع عن الطغيان الملكي، وأظهرت حقيقته أنّهُ جمهورياً وانساناً مندفعاً، ووصف بالفيلسوف المبدع في النظرية السياسية، وكان شأنه شأن أعظم المؤلفين في الفكر السياسي، طرح عقيدة الجدل كما طرح نظرية لشرحها[xxi].

لذا فكتاب الأمير دراسة مستفيضة عن أصول الحكم وفن السياسة، شرح فيه الأماني القومية الجياشة في نفسه الخاصة بتحرير بلاده من الجيوش الأجنبية المحتلة، وقيام وحدة سياسية تجمع شتات الوطن الممزق، وانشاء جيش وطني قومي يحمي بلاده، ولم يقتصر الكتاب على عصره الذي عاش فيه، بل تعرض للتاريخ القديم إذ استقى منه مادة علمية ثرية تؤيد آراءه السياسية المقدمة، أملاً منهُ أن يأخذ بها الأمير حتى يقود

ايطاليا نحو الحرية والوحدة والاستقلال، فأشار فيه لأحداث محددة في تاريخ اسبرطة، واثينا، وطيبة، والفرس، وامبراطورية الاسكندر المقدوني، والامبراطورية الرومانية، مما دلل على علمه الغزير بالتاريخ القديم، ونظريات وآراء وفلسفة العصور القديمة، فالكتاب يشتمل من ناحية على آراء استمدها من دراسة الماضي وتجارب الحاضر ويتضمن من ناحية أُخرى نصائح وارشادات يقدمها للأمير كي يسترشد بها في حكمه ليصل إلى أوفى قسط من القوة والمنعة[xxii].

كان الأمير المقصود في الكتاب هو أمير ايطالي–تحديداً لورنزو ديمديتشي– لكنه يحمل سمات أمراء عصر النهضة وهو حاكم طاغية مستبد، والمقصود بكلمة(الأمير) مايُعبّر عنها اليوم بلفظة(الملك)، لكن لدولة صغيرة أو دويلة لأن ايطاليا لاتزال آنذاك تعبيرًا جغرافيًا، وممزقة إلى وحدات سياسية صغيرة وامارات، فأراد ميكافيلي من تلك الصورة المرسومة في الكتاب أن تستهوي خيال أحد أُمراء أُسرة مديتشي فيتحمّس لتحمّل عبء النضال القومي وتوحيد بلاده وحمايتها.

تعرّض ميكافيلي في الأمير لنظم الحكم، واختيار الأفضل الذي يكفل النهوض ببلاده التي مزقتها الجيوش الأجنبية[xxiii]، ووضع شروطاً عن كيفية قيام أمير جديد بإنشاء دولة جديدة، كان أولها قدرة ايجاد الأمير للوحدة السياسية بين الولايات الايطالية المختلفة سواء عن طريق العنف وشن الحروب أو بالمسالمة والاقناع، ومدى محافظة الأمير على وعده، إذ جاءت كتاباته تحريضاً سافراً على نكث العهود من خلال نصحه للأمير بعدم إقامة وزن لعهدٍ قطعه على نفسه، أو وعد التزم به، إذا كان الإيفاء يعرضه للخطر لاسيما وان الناس أشرارٌ مناكيد لا يحترمون العهود والأمير في حلٍ من أن يتمسك بعهدٍ أو وعد[xxiv].

قرر فيه أيضًا أنّ الإنسان لا يقدم على فعل الخير إلّا مُكرهاً فلا مناص من استخدام الضغط والعنف بشتى الصور والأشكال، حتى تُحجب نزعته الشريرة، ويُحمل على فعل الخير، ثم عَرَضَ النظرية السياسية المشهورة الغاية تبرر الوسيلة أو مجموعة الوسائل القذرة التي يلجأ اليها الحاكم للمحافظة على كيان الدولة، وأنّ القوانين الأخلاقية وضعت من أجل تنظيم العلاقات بين الأفراد فقط، أما السياسة فلا مكان للأخلاق فيها، ويجوز اللجوء الى الرذيلة والخداع والبطش والقسوة وأنواع الجرائم كافة لمن أراد انشاء وتدعيم دولة قوية، وعلى أساس ذلك طالب ميكافيلي أن يكون الأمير بارعاً بالكذب والغش والنفاق، متظاهراً بالصفات الحسنة، و لا حرج على الأمير أن يأثم في حق الدين والفضيلة والانسانية اذا تطلبت المحافظة على الدولة منه ارتكاب ذلك، وان تمسّك الأمير بالفضائل يقضي عليه حتماً، بينما ممارسته الرذائل وجعلها اسلوباً لحكمه ستجلب له الرخاء

والأمن، فعلى الأمير أن يرهبه رعاياه ويخشون بأسه وسطوته، بدلاً من أن يكون محبوباً لديهم، لأن البشر عامة حسب رأيه قومٌ ناكرون للجميل ميّالون للكذب والغش والخداع، طامعون في الكسب متحاشون الأخطار، فهم يقفون الى جانب الحاكم طالما يقدم لهم خيراً، وطالما وجد الأمان، فاذا اقترب الخطر وأحدق يتنكرون له ويركنون الى الفرار فيجد الحاكم نفسه وحيداً[xxv].

وتكمن قوة الدولة بقوة جيشها، وللجيش في نظر ميكافيلي مهمتان هما حماية الأمن الخارجي، وتوطيد الأمن الداخلي، وقدّم النصح للأمير بالتزام القسوة المتناهية مع جنود جيشه، وتكون الحرب أولوية في تفكير الأمير؛ كونها المهنة الحقيقية لمن يتصدى للحكم، أما الازدواجية والمتناقضات التي حملها كتاب الأمير فقد بدا فيها ميكافيلي مناصراً للنظام الملكي، وفي قرارة نفسه وبين ثنايا السطور جمهوريّ النزعةِ والعقيدة، وتُفسّر هذه الازدواجية على أن مناصرته للنظام الملكي شيء عارض هدفه التقرب من أمير فلورنسا الجديد ليعيده إلى منصبه الذي عزل عنه، بينما هو مؤمن ايماناً راسخاً بحاجة بلاده إلى أمير قوي الشكيمة شديد المراس لتحقيق وحدتها السياسية ولن يكون هذا الأمير البطل سوى حاكم فلورنسا الذي يهديه كتابه، لذا فهو ينشد النظام الملكي لدولة واحدة هي ايطاليا ولهدف واحد هو تحقيق وحدتها، وما عدا ذلك فهو مؤيد قلباً وقالباً للنظام الجمهوري[xxvi].

تتلخص عوامل تفضيل النظام الجمهوري على الملكي في أنّ الجمهوري يقوم على مبدأ تكافؤ الفرص، بينما يقوم النظام الملكي على مبدأ الوراثة، الجمهوري أكثر مرونة وأسهل قابلية للتطور من الملكي الذي يمتاز بالجمود وعدم قدرته على تطوير نفسه، ويضيف ميكافيلي أنّ الحكومة الجمهورية أكثر وفاءً بالتزاماتها الدولية من الحكومة الملكية[xxvii].

خرج ميكافيلي على تقاليد العصور الوسطى في كتابه الأمير، متجاهلاً التعاليم الدينية التي حملتها الشرائع السماوية، متغافلاً عن القيم الانسانية وفي مقدمتها الاخلاق المثالية، مكرسها جميعاً للمصلحة السياسية، والشعب اداة مسخرة في يد الحاكم، وان تكون مصلحة الحاكم نفسها مصلحة الدولة مقدمة على كل اعتبار، إذ نادى بالسياسة الملتوية الغادرة الخائنة التي في اتباعها محافظة على كيان الدولة، ومما يؤخذ عليه اغفاله ذكر مقومات الدولة الاخرى كالدين والثقافة والاقتصاد، إذ ركّز اهتمامه بدعامتين فقط هما السياسة والجيش جاعلهما ضرورتان للمحافظة على كيان الدولة، وهذه الأفكار التي تبلورت منها السياسة الميكافيلية[xxviii].

بدأ ميكافيلي بكتاب المطارحات(أحاديث...) قبل انهاء كتاب الأمير، فكتب عن العقد الاول لتايتوس ليفيوس، والأفضل أن يُقرأ تزامناً مع الأمير لأنه جمع فيه جُل آرائه في السياسة والحرب والادارة وأصول الحكم

والقانون والاخلاق والدين والعلاقات الدولية وتوجيه الشعوب وقياداتها، متبعاً فيه اسلوباً جديداً مختلف عن الأسلوب المتبع في الأمير، موضحاً فيه ميوله الطبيعية لنظام الحكم الذي يؤثره على غيره من أنظمة الحكم الأخرى، والمتمثل بتمجيده لروما[xxix].

ولا يغلو ميكافيلي في(مطارحاته) غلّوه في(الامير) في الدعوة الى تبرير الواسطة بالغاية وانما يعتدل فيها كل الاعتدال ويحمله اعتداله هذا احياناً على التظاهر بالدعوة لما يناقضها وجعل(الغاية) هي الأساس في الحكم على سلوك الانسان وتصرفاته، وان كان في بعض المواضع يعود الى طبيعته التي كانت حجر الزاوية في شهرته العالمية والتي غدت(الدستور) الذي يوجه سياسة الطغاة والمستبدين والديكتاتوريين والعديد من الدول في جميع تصرفاتها وميولها والتي بدت لكل من يراقب سير السياسات وآثارها ونتائجها؛ القول الفصل في كثير من التطورات العالمية في العصور الحديثة، وان (المطارحات) الى حد كبير ترياق معاكس للأمير إذ أظهرت ميكافيلي انساناً جمهورياً يكره الطغاة، ويعمل في سبيل الخير العام، ويضع خط فاصل بين القواعد التي تنطبق على القضايا الداخلية للدولة وبين تلك التي تتصل بارتباطاتها مع الدول الخارجية، ولا يتحدث ميكافيلي كثيرا عن اسرة مديتشي في مطارحاته باستثناء ما ورد على لسانه في وصف المحاولة الفاشلة التي قام بها آل(بازي) لتدمير سلطانه، ويستخدم كوزيمو دي مديتشي الذي يصفه بأنه الاول في اظهار عظمة آل المديتشي في المدينة، كمثال لشرح نظريته في ان على الانسان عندما يواجه عاصفة هوجاء يحاول تلطيف هذه العاصفة وتهدئة ثائرتها بدلاً من محاولة اخمادها والقضاء عليها[xxx].

عاد ميكافيلي الى الحديث عن كوزيمو ثانية في مناسبة مماثلة مبيناً أنّ خصومه لو لجأوا الى استنفار عطف الجماهير كما فعل هو لما اضطروا الى اللجوء الى الثورة أو العنف، ويقتبس ميكافيلي شيئاً من أقوال لورينزو ولكنه لا يذكره إلّا مرة واحدة باستثناء ذكره في مؤامرة اسرة(بازي)، وجاءت المطارحات بشكل مركز عن جمهورية روما، وعلى شكل ثلاث كتب ضمن كتاب واحد، ولكل كتاب عنوان بمثابة باب أو فصل عام يحتوي على عدد من المطارحات، وكل مجموعة مطارحات لها عنوان رئيسي ويتفرع منها مواضيع ثانوية والجدول (٣) يوضح ما حملته تلك المطارحات:

جدول(٣) أهم العناوين والمحاور التي حملتها مطارحات ميكافيلي[xxxi]

عنوان الكتاب	عناوين المطارحات الرئيسية	عناوين المطارحات الفرعية

الكتاب الاول (تطور الدستور في روما)	المطارحات من(١-١٠) احسن انواع الحكم	–اصول المدائن –انواع الحكومات –ممثلو الشعب –الوفاق بين الشعب والنبلاء –من يملك ومن لايملك –هل التفاهم ممكن؟ – المقاضاة العلنية –التشهير والاتهام العلني –اهمية االسلطة المطلقة –لوم الطغاة
	المطارحات من(١١-١٥) الدين	–ديانة الرومان –اهمية الدين –الدين عامل تنظيم –تفسير النذر –الملاذ الاخير
	المطارحات من(١٦-١٨) الانتقال من العبودية الى الحرية	–صعوبة الحفاظ على الحرية –الشعب الفاسد لايحتفظ بحريته – كيفية اقامة الحكومة الحرة
	المطارحات من(١٩-٢٤) افكار مختلفة عن ملوك روما	–ضعف الامير –اهمية تتابع الامراء الفاضلين –اهمية القوات المسلحة الخاصة –مبارزة فاصلة –تفاهة الدفاع عن المضائق – الموازنة بين المكافآت والعقوبات
	المطارحات من(٢٥-٢٧) ادخال انواع جديدة من الحكم	–المحافظة على العادات القديمة –اهمية التجديد –الصلاح والطلاح
	المطارحات من(٢٨-٣٢) نكران الجميل	– الرومان ونكران الجميل –نكران الجميل بين الامير والشعب – تجنب نكران الجميل –روما لاتحاسب قادتها على اخطائهم – اغداق المنافع على الشعب
	المطارحات من(٣٣-٣٦) منافع الديكتاتورية ومساوئها	–خير الديكتاتورية وشرها –اضرار مجلس العشرة في روما – خدمة الوطن واجبة
	المطارحات من(٣٧-٣٩) الطريق الى الدمار	–القوانين الزراعية –مضار التردد –تكرر الاحداث رغم اختلاف الشعوب
	المطارحات من(٤٠-٤٥) آراء مختلفة ترتكز الى مجلس العشرة	–الانتقال المفاجئ من التواضع الى الكبرياء –سهولة افساد الناس –خيرة الجود من يطلبون المجد –لاقيمة للجماهير بلا زعيم –المشروع لايخالف قانونه

الكتاب الثاني (نمو الامبراطورية الرومانية)	المطارحات من(٤٦-٤٩) الطلب الشائع للاشتراك في الحكم	-الانتقال من طموح الى طموح -الخطأ لايكون في التفاصيل - طريقتان للحيلولة دون الفاسدين والحكم -صعوبة صياغة القوانين لضمان الحرية
	المطارحات من(٥٠-٥٥) قيادة الشعب	-وجوب استمرار الاجراءات -التظاهر بالكرم في معرض الحاجة طريقة اخماد الغطرسة -خداع المظاهر البراقة للشعب -الوقور يكبح جماح الجماهير -المساواة والامارة ضدان لا يجتمعان
	المطارحات من(٥٦-٦٠) مزايا الحكومة الشعبية	-النُذر تسبق الكوارث -القوة في الوحدة -الجماهير اكثر معرفة من الامير -عهود الجمهوريات وعهود الامراء -الكفاية طريق المناصب
	المطارحات من(١-٥) طرق التوسع	-الفضيلة او الحظ سبب المجد -اعداء روما -اساليب روما - طرق ثلاثة للتوسع -زوال آثار الماضي
	المطارحات من(٦-١٠) الاستيطانية والحرب اسبابها وتكاليفها	-طريقة شن الرومان لحروبهم -اراضي المستعمرات -اسباب الهجرات -اسباب الحروب -لا اهمية للمال في الحرب
	المطارحات من(١١-١٥) الدبلوماسية والحرب	-لاقيمة للشهرة بلا قوة -من الافضل الهجوم او الانتضار؟ - الحيلة وسيلة الارتقاء -التواضع لايقهر الكبرياء -الضرر في غموض القرارات وابطاء تنفيذها
	المطارحات من(١٦-١٨) الجيش-انضباطه والاجزاء التي تؤلفه	-لا وجه للمقارنة بين اليوم والامس -اهمية المدفعية -افضلية المشاة على الفرسان
	المطارحات من(١٩-٢٣) ادارة الاراضي المحتلة والمشاكل الاخرى	-اهمية الحكم الصالح -ضرر استخدام القوات المرتزقة والاضافية -روما توفد قضاتها -خطأ الناس في قضايا الساعة -روما لاتعرف الحلول الوسط
الكتاب الثالث	المطارحات من(٢٤-٢٧) أخطاء الحروب	-ضرر القلاع -انقسام المدن لايذلل احتلالها -ضرر احتقار الناس -القناعة كنز لا يفنى

امثولة عظماء روما	المطارحات من(٢٨-٣٣) تعامل روما مع الدول والمدن المجاورة	-اهمية الثأر للاساءة -الحظ يعمي بصائر الناس -الاحلاف لاتشترى بالمال -خطر الثقة في اللاجئين -اساليب الرومان في احتلال المدن -قادة روما احرار في قراراتهم
	المطارحات من(١-٥) الاصلاح، الامن والقضاء على المنافسين	-العودة الى البداية -ادعاء الحمق -الحرية الحديثة..كيف تحفظ -القضاء على المطالبين بالعرش -كيف يضيع امير ملكه
	المطارحة السادسة المؤامرات	-التآمر والمؤامرات -اسباب المؤامرات -مؤامرات الافراد – مؤامرات الضعفاء -مؤامرات الاقوياء -تحذير الى الامراء -خطر المخبرين -عدم الحرص -اكتشاف المؤامرات وصعوبة منعها – الاغتيال غير العمد -اخطار تبديل الخطة -الفشل لضعف التصميم -الفشل لاضطراب الفكر -مؤامرات ضد اكثر من امير -الفشل بسبب الانطباعات الزائفة -الفشل بسبب احداث عريضة -الاخطار التي تعقب المؤامرة -تآمر الانسان على بلاده – استعمال السم -اساليب القضاء على المؤامرات
	المطارحات من(٧-٩) الحاجة الى التكيف بالنسبة الى المحيط	-التحول من الحرية الى العبودية وبالعكس -وجوب الاهتمام بالمحكومين -التكيف مع الزمن
	المطارحات من(١٠-١٥) ملاحظات عامة عن سوقية الحرب	-تجنب الاشتباك -احتمال وطأة الهجوم الاول -اهمية الضرورة في القتال -بين القائد والجيش -الاختراعات الحديثة والاصوات الغريبة -القيادة الفردية والقيادة الجماعية
	المطارحات من(١٦-١٨) المناصب الادارية	-قيمة الفضيلة في الاوقات الحرجة -تجنب من اسأت اليه – التحسب لخطط العدو
	المطارحات من(١٩-٢٣) الاساليب الادارية	-هل الاشفاق خير من العقاب؟ -حسن التصرف -اختلاف بين اسلوبين -صرامة ودماثة -لماذا ابعد كاميلوس من روما؟

	المطارحات من(٢٤-٣٠) الامن الداخلي	-اطالة امد القيادات العسكرية -فقر المواطنين الرومان -اثر النساء في اسقاط الدول -كيف تعاد الوحدة الى مدينة؟ -مراقبة اعمال المواطنين -الامراء سبب اخطاء الشعوب -القضاء على الحاسدين
	المطارحات من(٣١-٣٥) رباطة الجأش،التمرد،الثقة،الحملات الانتخابية والمشورة	-رباطة الجأش والكرامة -الوسائل لمنع الصلح -ثقة الجيش بنفسه وقائده -اسباب التأييد -اخطار المشورة
	المطارحات من(٣٦-٣٩) نصائح الى القادة في الميدان	-الحماس الطبيعي في الجيوش -ضرورة الماوشات -الايحاء بالثقة -معرفة طبيعة الارض
	المطارحات من(٤٠-٤٢) سلامة الشعب هي الشريعة العظمى	-الخدعة لاتنافي المجد -ضرورة الدفاع -لاحفظ لوعود الاكراه
	المطارحات من(٤٣-٤٨) اراء جديدة حول الحروب	-خصائص واحدة رغم اختلاف الاجيال -اضرار التهور والجرأة -ايهما افضل الهجوم الكاسح ام الدفاع -الاسرة الواحدة تحتفظ بتقاليدها -الوطن قبل كل شيء -اصطناع الخطأ للخداع
	المطارحات الاخيرة(الفصل الاخير) الحفاظ على الحرية في الجمهورية	اكد فيه على ان الجمهورية التي تطمع في الحفاظ على حريتها ان تتخذ اجراءات احتياطية جديدة كل يوم لتحقيق هذه الغاية ومافعله كوينتوس فابيوس لاكتساب لقب مكمسيموس

اوضح الجدول اعلاه اهم ما حوته مطارحات ميكيافيلي وبدا لنا فيها ايضا اهتمام ميكفيافيلي بالحفاظ على الجمهورية والحرية فيها واعطاء النصائح للقائد في الميدان.

برزت لميكافيلي مقولات مشهورة الى جانب الكتب، كان من أهمها[xxxii]: (حبي لنفسي دون حبي لبلادي)، (من الأفضل أن يخشاك الناس على أن يحبوك)، (الغاية تُبرر الوسيلة)، (أثبتت الأيام أن الأنبياء المسلحين

أحتلوا وأنتصروا، بينما فشل الأنبياء غير المسلحين عن ذلك)، (ان الدين ضروري للحكومة لا لخدمة الفضيلة ولكن لتمكين الحكومة من السيطرة على الناس)، (من واجب الأمير أحياناً ان يساند ديناً ما ولو كان يعتقد بفساده)، (ليس أفيد للمرء من ظهوره بمظهر الفضيلة)، (لايجدي أن يكون المرء شريفاً دائماً).

المحور الثالث : فلسفة ميكافيلي ومنهجه الفلسفي

اتبع ميكافيلي منهج فلسفي جديد مختلف عن مناهج سابِقِيه؛ فهو رغم دراسته للمنطق والفلسفة الا أنّه أهمل مبادئها بشكل تام، مركّزاً على التاريخ، فتلخصت فكرته الرئيسية على أن أفعال البشر تؤدي دوماً لنفس النتائج، لذا حاول الربط بين الاسباب والنتائج والدراسات التحليلية المستمدة من التاريخ[xxxiii]. ونتيجة لذلك كان اسلوب بحثه قائماً على[xxxiv]:

١- التنبؤ بالمستقبل من خلال الاستعانة بالتاريخ لاستقصاء الأحداث، ومعرفة نتائجها، وارتباطها، وإمكانية تكرارها.
٢- وضع تعميمات للوصول إلى قواعد عامة في حالة تكرار الأحداث، توضع أمام الحكام لتسهيل مهمتهم ومساعدتهم في تبني مواقفهم.
٣- البحث عن إمكانية التدخل في الأحداث مسبقاً بعد معرفة أسبابها، ومحاولة تحديد السلوك الواجب إتباعه لمواجهة الأحداث.

اتضح لنا من خلال الاسلوب مدى شغف ميكافيلي بالتاريخ، وكثرة استخدام الأحداث التاريخية لإسناد صحة أفكاره –كما في كتاب "**فن الحرب**" وغيره – وبذلك يعد ميكافيلي أحد أهم مؤسسي طريقة التحليل التاريخي الحديثة.

أظهرت الفلسفة الميكافيلية استقلالية الرأي وجرأة التفكير المجرد من الخوف في عالم الاخلاق والسياسة لدى ميكافيلي، و انه قد شقّ لنفسه طُرقاً جديدة في وديان لم يطرقها أحد قبله، إذ أنّ فلسفة ميكافيلي فلسفة سياسية خالصة ليس فيها شيء من فلسفة ما وراء الطبيعة ولا اللاهوت و لا الايمان أو الكفر، ولا تبحث في الجبرية أو القدرية، وهو يقدم مفهوم السياسة على انها الفن العالي المُراد به ايجاد دولة أو الاستيلاء عليها أو حمايتها أو تقويتها، فهو بذلك يهتم بالدولة لا بالإنسانية عامة، ونظرته للأفراد انهم أعضاء دولة، ولم يُعنى قط باستعراضهم على مسرح الزمان[xxxv]، وأراد ان يعرف لِمَ تنشأ الدول وتسقط، وكيفية تأخير اضمحلالها لأطول وقت ممكن، و يرى أن فلسفة التأريخ وعلم الحكم أمكن وجودهما لان الطبيعة البشرية لا تتبدل ابداً[xxxvi].

واجه ميكافيلي مشكلة معقدة غاية التعقيد بقانون بسيط للغاية إذ قال: "**الشجاعة تنتج السلم؛ والسلم ينتج الراحة، والراحة تستتبع الفوضى والفوضى تؤدي الى الخراب ومن الفوضى ينشأ النظام والنظام يؤدي الى الشجاعة ومن هذه ينال المجد والحظ الحسن، وكلما كثر نصيب الانسان من الشجاعة قل خضوعه لتقلبات الخط واستسلامه لهُ**"[xxxvii].

أما من الناحية الدينية فقد ارتضى ميكافيلي الدين بوجه عام، فيما وجه أشد النقد الى الدين المسيحي؛ كونه عجز عن ايجاد مواطنين طيبين وذلك انه حول اكثر ما يجب تحويله من العناية الى السماء واضعف الناس قائلاً:

"ان الدين المسيحي يدعوننا الى الاستخفاف بحب الدنيا ويجعلنا أكثر رقة ولين أما القدماء فكانوا على العكس يجدون أعظم أسباب بهجتهم في هذا العالم، ولم يكن دينهم يقدس الا الذين يتوج هاماتهم مجد العالم الأرضي كقواد الجيوش، ومؤسسي الجمهوريات، على حين ان ديننا نحن قد مجد الوادعين الذين يقضون زمانهم في التأمل والتفكير بدل ان يمجد رجال العمل وقد جعل هذا الدين اعلى درجات الخير الذلة وضعف العزيمة واحتقار الامور الدنيوية، اما الدين القديم فكان يجعل اعلى درجات الخير عظم العقل وقوة الجسم وكل ما يبعث في الناس الاقدام والجرأة.. ومن اجل هذا خر العالم صريعاً امام الاشرار فقد وجد هؤلاء الناس اكثر استعداداً للخضوع الى الضربات طمعاً منهم في دخول الجنة بدل ان يردوا عليها بمثلها"[xxxviii].

اختلف خروج ميكافيلي على المسيحية عن خروج فولتير وديدرو، وداروِن واسبنر وريِنان عليها وذلك لان هؤلاء الرجال يرفضون لاهوت المسيحية ولكنهم يحتفظون بالقانون المسيحي الاخلاقي ويعجبون به وظلت هذه الحالة قائمة الى ايام نتشه ولطفت حدة النزاع النائم بين الدين والعلم [xxxix]، اما ميكافيلي فلا يشغل باله بالعقائد الدينية وبعدها عن العقول فهو يرى هذا البعد امراً طبيعيا وقضية مسلّم بها ولكنه يقبل اللاهوت المسيحي قبولا حسنا بحجة انه نظاماً ما من المعتقدات فوق الطبيعية وهو دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعي اما الذي يرفضه من المسيحية رفضاً باتاً مبادئها الاخلاقية المتمثلة بالصلاح والخير هما الرقة والذلة والاستسلام وعدم المقاومة وحبها للسلم وتنديدها بالحرب؛ وافتراضها ان الدول والافراد مرتبطون بقانون اخلاقي واحد، بينما يفضل هو على هذه المبادئ القانون الاخلاقي الروماني القائم على المبدأ القائل(ان سلامة الشعب او الدولة هي القانون الأعلى) فعندما يكون الأمر لمصلحة البلاد وخيرها يجب عدم البحث في العدل او الظلم و الرحمة او القسوة خليق أو الثناء او الازدراء؛ بل يجب سلوك كل سبيل ينقذ حياة الامة وحريتها وتنحية كل ما عدا ذلك

جانباً، وذلك ان الاخلاق بوجه عام في نظره ما هي الا قانون ينظم سلوك أفراد المجتمع او الدولة لحفظ النظام الجماعي والوحدة والقوة وان حكومة تلك الدولة لتعجز عن اداء واجبها اذا كانت وهي تدافع عن الدولة تسمح بان تقيد نفسها بالقانون الاخلاقي الذي يجب عليها ان تغرسه في نفوس شعبها[xl].

الدبلوماسي في فلسفة ميكافيلي غير مقيد بالقانون الأخلاقي الذي يتقيد به شعبه؛ لأن فلسفته قائمة على أساس الغاية تبرر الوسيلة، فالجرائم والغش والقسوة التي يرتكبها الرجل في سبيل الاحتفاظ بدولته كلها(غش شريف) و(جرائم مجيدة) وليس ثمة قانون طبيعي أو حق متفق عليه من الناس جميعاً، وان تكون السياسة مستقلة عن الأخلاق استقلالاً تاماً إذا قصد بها فن الحكم، واذا ما طبقنا هذه المبادئ على قانون الحرب الاخلاقي فان ميكافيلي واثق كل الثقة من انها تجعل نزعة السلام المسيحية سخفاً وخيانة لان الحرب تناقض وصايا موسى كلها تقريباً، فهل تجيز القسم، والكذب، والسرقة، والقتل، وارتكاب الزنا آلاف المرات، ولكنها اذا ما حافظت على المجتمع أو كانت سبباً في تقويته فهي خير، وينتقل ميكافيلي من قضية القيود الاخلاقية الى مشكلة عصره الاساسية المتمثلة بحصول ايطاليا على الوحدة والقوة اللتين تمكناها من نيل حريتها الجماعية، مؤكداً ميكافيلي في هذا الصدد عدم استطاعة أي أمة من الامم ان تكون متحدة وسعيدة دون اطاعتها حكومة واحدة سواء كانت جمهورية او ملكية، كما هو الحال في فرنسا، واسبانيا مبيناً أنّ السبب الوحيد الذي يعيق ايطاليا من تحقيق ذلك هو الكنيسة، لأن الأخيرة حصلت لنفسها على سلطان زمني واحتفظت بهذا السلطان، فهي لا تمتلك القوة والشجاعة الكافية التي تُمكّنها من الاستيلاء على أجزاء البلاد الأخرى، وفرض سيادتها الوحيدة على ايطاليا بالكامل[xli]. يبدو لنا ان فكرة ميكافيلي لم تكن ضد الكنيسة كونها تدافع عن سلطتها الزمنية، بل أنّ مهاجمتهُ لها فقط لأنها لم تُسخّر مواردها كافة لتوحيد ايطاليا واخضاعها بالكامل لحكمها السياسي.

أكدّت فلسفة ميكافيلي أنّهُ من النافع للأمير تظاهره بالفضائل و إن لم يتصف بها وليس من الضروري أن يتصف بها، فعليه مثلًا أن يتظاهر بالرحمة، والوفاء، والشفقة، والتديّن، والاخلاص، والمرونة العقلية، و بإمكانه الاتصاف بعكسها اذا دعت الحاجة، وعليه ان يحذر من أن ينطق بكلمة تنطبق عليها الصفات سالفة الذكر[xlii].

عدم اكتراث فلسفة ميكافيلي بالاخلاق ليس انعزالاً علمياً، بقدر ما كان السبب هو اهتمامه بجانب واحد فقط المتمثل بالقوة السياسية وعدم المبالاة بغيرها، فهو لم يتردد ابداً في التعبير عن احكام قاطعة على الحكام الذين سمحوا لدولهم أن تضعف، وكان يستخدم التاريخ تماماً بمثل ما استخدم الملاحظة من جانبه ليوضح او

يؤيد نتيجة وصل اليها دون الرجوع الى التاريخ، كان يؤكد بصراحة ان الطبيعة البشرية واحدة دائما وفي كل مكان ولهذا السبب استمد الأمثلة حيث وجدها، واروع وصف لمنجزه أنّهُ قدّم السياسة إلى اللغة الدارجة[xliii].

وصف ميكافيلي للملكية المطلقة لم يتطابق مع ماهو واضح من تحمسه المخلص للحرية والحكم الذاتي في الجمهورية الرومانية؛ فالإبقاء على الدولة تميّزا له عن تأسيسها يتوقف على جودة قانونها لأنه مصدر جميع فضائل مواطنيها المدنية، وحتى في ظل الملكية فالشرط الأصلي للحكم المسقر أن يُنظمه القانون، ولهذا أصرّ ميكافيلي على الحاجة لعلاجات قانونية ضد المساوئ الرسمية كي يتسنى منع العنف غير المشروع، وأوضح الاخطار السياسية الكامنة في مخالفة الحكام للقوانين، وحماقة السياسات القائمة على الكيد والمضايقة، والحاكم الفطن لا تطول يده على ممتلكات رعاياه ونسائهم لان ذلك ببساطة يستفز الناس ويدفعهم الى المقاومة، وكان يحبذ حكماً رفيقا حيثما أمكن ذلك واستخدام الشدة على ان تكون باعتدال، و أوضح صراحةً أن الحكم يكون أكثر استقراراً إذا تشاركه كثيرون، وفضّل الانتخاب على الوراثة كأسلوب لاختيار الحكام، وطالب بحرية عامة في اقتراح التدابير من اجل الخير العام، وبحرية المناقشة التي يمكن سماع كلا الوجهين من كل مسألة قبل الوصول إلى قرار، و رأى ان يكون الناس مستقلين وأقوياء ليس من سبيل لجعلهم ذوي جرأة في القتال بغير اعطائهم وسائل التمرد[xliv].

اتصلت فكرته السيئة عن الارستقراطية وطبقة النبلاء اتصالاً وثيقاً بحكمة المشايع للحكم الشعبي كلما كان ذلك ممكناً وللملكية حيثما تدعو الضرورة، إذ أدرك أكثر من أي مفكر آخر في عصره أنَّ مصالح النبلاء مناقضة لمصالح كل من الملكية والطبقة الوسطى، والحكم الذي يتصف بالنظام يتطلب قمعهم أو استئصال شأفتهم، لأنهم يعيشون في خمول على الدخل الناتج من ثروتهم دون تأدية أيةِ خدمة مفيدة، فهم اعداء لكل حكم مدني في أي مكان[xlv].

أظهر خلق ميكافيلي والمعنى الحقيقي لفلسفته بأنّهُ ساخر تماماً، ووطني استبد به التحمس، وقومي متحمس، وجزويتي سياسي، وديمقراطي عن اقتناع وايمان، وساعٍ دون وازع من ضمير وراء عطف المستبدين لعل في كل هذه الآراء مع ما بينها من تناقض عنصراً من الحقيقة الشي الذي ليس صحيحا على وجه التأكيد ان أياً منهما يعطي صورة كاملة لميكافيلي أو لفكره، إذ كان فكره فكر رجل يعتمد على الخبرة التي اكتسبها من التجربة السياسية، والاطلاع الواسع على التاريخ السياسي، ولم يكن في هذه التجربة مذهب عام حاول ميكافيلي ان يربط به كل مشاهداته، فقد بيّنت كتاباته تركيزاً للاهتمام يبعث على الدهشة فهو لا يكتب عن شئ أو يفكر في

شيء باستثناء السياسة وفن السياسة وفن الحرب، اما الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والدينية فلم يهتم بها إلّا عند تأثيرها في السياسة[xlvi].

أوجد ميكافلي اكثر من أي مفكر سياسي آخر المعنى الذي ارتبط بالدولة في الاستعمال السياسي الحديث، فالدولة كقوة منظمة لها التفوق في أرضها، وتنتهج سياسة واعية من التوسع في علاقاتها مع الدول الأُخرى، لم تصبح المؤسسة السياسية الحديثة والنموذجية فحسب ولكنها اصبحت بصورة واضحة اقوى مؤسسة في المجتمع الحديث، إذ أصبح لها الحق والالتزام في تنظيم جميع مؤسسات المجتمع الأخرى والسيطرة عليها وتوجيهها وفق خطوط ترسمها بشكل سافر مصالح الدولة نفسها، والدور الذي لعبته الدولة وفق هذا التصور في السياسة الحديثة دلالة على الوضوح الذي فهم به ميكافيلي اتجاه التطور السياسي.

الخاتمة:

أفضى البحث الى نتيجة مفادها أن شهرة ميكافيلي المفكر وفيلسوف السياسة ارتبطت بما دار في ايطاليا إبّان عصر النهضة وتحديدًا فلورنسا إذ هادن أقوى الأسر الحاكمة فيها ملتجئاً الى قوة الدولة من أجل التصدي لقوة الكنيسة لأنها بنظره لا تتدخل في الحكم، وبذلك أصبح الشخصية الرئيسية المؤسسة للتنظير السياسي الواقعي الذي أنتج(السياسة الواقعية)، وأول من فصل بين الدين والدولة

و إن أفعال البشر تؤدي إلى نفس النتائج دوماً وفقاً للافتراض الأساسي في نظرية ميكافيلي السياسية، لذا حاول الربط بين الأسباب والنتائج وبين الدراسات التحليلية المستمدة من التاريخ، فاستفاد من دروس التاريخ القديم و الاحداث المعاصرة كيف تنال الامارات وكيف يُحتفظ بها وكيف تُفقد، وانتهى الى رأي في السياسة يتلخص بـ "**الغاية تبرر الوسيلة**" مهما كانت هذه الوسيلة منافية للدين والأخلاق، فهو بذلك أول من بيّن الأخلاق السياسية في العالم الحديث.

مثّل كتاب الأمير تفصيلاً لمبدأ الغاية تبرر الوسيلة، ودافع فيه عن الملكية المطلقة، رغم أنه مقدم خصيصاً لأمير عائلة مديتشي الذي أراد منه ميكافيلي توحيد ايطاليا، اذ فصّل فيه نظم الحكم واختيار افضل النظم التي تكفل النهوض ببلاده ضد الجيوش الاجنبية، الا أن الكتاب حمل بعض الشروط عن كيفية قيام أمير جديد بإنشاء دولة جديدة، مما جعل الدول الحديثة تتخذه دستوراً في تنظيم شؤونها وعلاقاتها الداخلية والخارجية، فوضع بذلك ميكافيلي أساس (الدولة القومية الحديثة).

اتضح من نتائج البحث أيضاً تناقض ميكافيلي فهو لم يغلو في(مطارحاته) كغلّوه في(الأمير) الذي قام على أساس الغاية تبرر الوسيلة، وانما اعتدل في المطارحات كل الاعتدال حتى تظاهر بالدعوة لما يناقضها وجعل(الغاية) هي الاساس في الحكم على سلوك الانسان وتصرفاته وان كان في بعض النواحي يعود إلى طبيعته التي كانت سبب شهرته العالمية والتي غدت(الدستور) الموجه لسياسة الطغاة والمستبدين والديكتاتوريين والعديد من الدول في جميع تصرفاتها وميولها.

ان مصطلح الدولة ومعناها الحقيقي الذي ارتبط بالاستعمال السياسي الحديث جاء بجهود فكر وفلسفة ميكافيلي الذي أجادها أكثر من أي مفكر سياسي آخر لذا لمع في سماء عصر النهضة الأوربية بأنه الفيلسوف السياسي الأبرز، لذا رأينا الدولة اليوم هي صاحبة السيطرة على رعاياها، وصاحبة الكلمة الأولى في تنظيم الشؤون والعلاقات الخارجية والأمن والاقتصاد وغيرها من المجالات الأخرى.

الهوامش :

[i]) لويس عوض، ثورة الفكر في عصر النهضة الأوربية، مركز الاهرام للترجمة والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٤٣.

(٢) عمر عزيز عمر، دراسات في التاريخ الاوربي والامريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٢، ٤٦.

[iii]) مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٠م، ص٢١.

(٤) الجدول من اعداد الباحثة بالاعتماد على: نيقولا ميكيافيلي، الامير، ترجمة: اكرم مؤمن، ابن سينا، القاهرة، ٢٠٠٤، ص١٥؛ ول ديورانت، قصة الحضارة(النهضة)، الجزء الرابع من المجلد الخامس، ترجمة: محمد بدران، بيروت، د.ت، ص٤٤-٤٧

(٥) ول ديورانت، المصدر السابق، ص٤٤.

(٦) اشرف صالح محمد السيد، اصول التاريخ الاوربي الحديث، دار واتا للنشر، قطر، ٢٠٠٩، ص٤٥.

(٧) هـ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، دار النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٢٨٩.

(٨) جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثالث، ترجمة: راشد البراوي، تقديم: احمد سويلم العمري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص٣٣.

[ix]) زينب عصمت راشد، تاريخ اوربا الحديث، ج١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م، ص١٠٠

(١٠) ول ديورانت، المصدر السابق، ص٤٥.

(١١) اشرف صالح، المصدر السابق، ص٥٢.

[xii]) ميكيافيلي، الامير، ص٤٥.

(١٣) نيقولا ميكيافيلي، الامير، ص٤٣.

(١٤) عبد العزيز نوار و محمود محمد جمال الدين، التاريخ الاوربي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩، ص٢٣.

(١٥) ول ديورانت، المصدر السابق، ص٤٦

(١٦) عمر عزيز عمر، المصدر السابق، ص٥٠

(١٧) تيتوس ليفيوس(٥٩ ق.م– ١٧ ب.م) مؤرخ روماني مشهور ولد من اسرة معروفة في بادرا وتثقف ثقافة عالية في ادب الاغريق وفلسفتهم ومنطقهم، وكان معروفاً بميوله الجمهورية في الحرب الاهلية، وتوقع سقوط الامبراطورية الرومانية رغم صداقته للامبراطورين اوغسطس وكلوديوس. ولا يعتبر كتابه عن تاريخ روما مرجعاً علمياً نظراً لاغراقه في قبول الاساطير. ينظر: ول ديورانت، المصدر السابق، ص٤٧.

(١٨) يراجع: جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، بيروت، ١٩٧٣م.

(١٩) الجدول من اعداد الباحثة بالاعتماد على: نيقولا ميكيافيلي، الأمير؛ احمد الشيباني، تاريخ الفكر الاوربي الحديث، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٩٩٤، ص٣٥؛ موريس فراد وارد، موسوعة مشاهير العالم، ص٣٤؛ عبد الرحمن حسن الميداني، كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم، دمشق، ١٩٩١، ٣٧٣.

(٢٠) نيقولا ميكيافيلي، الامير، ص٢٣.

(٢١) جورج سباين، المصدر السابق، ص٣٣.

(٢٢) نيقولا ميكافيلي، الامير، ص٢٦

[xxiii]) اسحق عبيد، عصر النهضة الأوربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٩٨.

(٢٤) نيقولا ميكافيلي، الامير، ص٢٦.

(٢٥) نيقولا ميكافيلي، الامير، ص٧٦

(٢٦) المصدر نفسه.

(٢٧) ول ديورانت، المصدر السابق، ص٤٧.

[xxviii]) وليد محمد الشناوي، دور مقدمات الدساتير في التفسير الدستوري دراسة تحليلية مقارنة، دار الفكر والقانون، المنصورة، مصر، د.ت، ص٧٠

(٢٩) ول ديورانت، المصدر السابق، ص٥٠.

(٣٠) نيقولا ميكيافيلي، مطارحات ميكيافيلي، ترجمة خيري حماد، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢، ص١٥.

(٣١) الجدول من اعداد الباحثة بالاعتماد على: نيقولا ميكافيلي، مطارحات ميكافيلي، ص٧١١–٧٣٤

(٣٢) نيقولا ميكافيلي، الامير، ص٦٥؛ ول ديورات، المصدر السابق، ص٥٢.

(٣٣) جورج سباين، المصدر السابق، ص٣٦.

(٣٤) موريس فراد وارد، المصدر السابق، ٤٠.

[xxxv]) سيرج أوديه، مكيافيلي في النزاع والحرية، ترجمة نجيب غزاوي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، لبنان، ٢٠١٥م، ص١٠.

(٣٦) عمر عبد العزيز، المصدر السابق، ص٥٢.

[xxxvii]) ميكافيلي، الامير، ص٦٥

(٣٨) ديورانت، المصدر السابق، ص٩٤.

(٣٩) يوسف كرم، تاريخ الفلسفة، القاهرة، ١٩٥٧، ص٥٤.

(٤٠) وديع طوروس، الاقتصاد السياسي، الاقتصاد السياسي، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، ٢٠١٠، ص١١٤.

(٤١) جورج سباين، المصدر السابق، ص٥٣.

(٤٢) نيقولا ميكيافيلي، الامير، ص٩٢.

(٤٣) جورج سباين، المصدر السابق، ص٣٥.

(٤٤) المصدر نفسه، ص٤٤.

(٤٥) عمر عبد العزيز عمر، المصدر السابق، ص٥٢.

(٤٦) موريس فراد وارد، المصدر السابق، ٤٥.

قائمة المصادر :

– احمد الشيباني، تاريخ الفكر الاوربي الحديث، دار القارئ العربي، القاهرة، ١٩٩٤م.

– اسحق عبيد، عصر النهضة الأوربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٦م.

– اشرف صالح محمد السيد، اصول التاريخ الاوربي الحديث، دار واتا للنشر، قطر، ٢٠٠٩م.

– جان جاك روسو، العقد الاجتماعي، بيروت، ١٩٧٣م.

– جورج سباين، تطور الفكر السياسي، الكتاب الثالث، ترجمة: راشد البراوي، تقديم: – احمد سويلم العمري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢م.

– زينب عصمت راشد، تاريخ اوربا الحديث، ج١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨٦م.

– سيرج أوديه، مكيافيلي في النزاع والحرية، ترجمة نجيب غزاوي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط١، لبنان، ٢٠١٥م.

– عبد الرحمن حسن الميداني، كواشف زيوف في المذاهب الفكرية المعاصرة، دار القلم، دمشق، ١٩٩١م.

– عبد العزيز نوار و محمود محمد جمال الدين، التاريخ الاوربي الحديث، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م.

– عمر عزيز عمر، دراسات في التاريخ الاوربي والامريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٩٢م.

– لويس عوض، ثورة الفكر في عصر النهضة الأوربية، مركز الاهرام للترجمة والنشر، ط١، القاهرة، ١٩٨٧م.

– مهدي محفوظ، اتجاهات الفكر السياسي في العصر الحديث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٩٠م.
– موريس فراد وارد، موسوعة مشاهير العالم، ج٥، دار الصداقة العربية، بيروت، ٢٠٠٢م.
– نيقولا ميكيافيلي، الامير، ترجمة: اكرم مؤمن، ابن سينا، القاهرة، ٢٠٠٤ م.
– نيقولا ميكيافيلي، مطارحات ميكيافيلي، ترجمة خيري حماد، دار الافاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م.
– هـ. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، دار النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٢م.
– وديع طوروس، الاقتصاد السياسي، الاقتصاد السياسي، المؤسسة الحديثة للكتاب، بيروت، ٢٠١٠م.
– ول ديورانت، قصة الحضارة(النهضة)، الجزء الرابع من المجلد الخامس، ترجمة: محمد بدران، بيروت، د.ت
– وليد محمد الشناوي، دور مقدمات الدساتير في التفسير الدستوري دراسة تحليلية مقارنة، دار الفكر والقانون، المنصورة، مصر، د.ت.
– يوسف كرم، تاريخ الفلسفة، القاهرة، ١٩٥٧م.